

سيدي الملك الحسن الثاني :
أين المغرب من قضية العروبة

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربياً » .

وسوف أظل أصرخ بأعلى صوتي مُذَكِّراً أن قوة الإنسان الحقيقية ليست في أن يسرع بالتخلي عن هويته⁽¹⁾ إزاء أول لظمة تصيبه نتيجة لتمسكه بذاته الحضارية، وإنما قوته هي في أن يزداد تمسكاً؛ لأن الذات الحضارية لا يمكن أن تتغير أو تتبدل . إنها تولد معنا وتنساب في دماننا وتشب خلال حياتنا ، وتينع مع إيناع شخصيتنا ، وتظل هي وهي وحدها تمثل استمرارية وجودنا المعنوي عقب اختفائنا العضوي . إنها القسوة منها نستمد الإيمان بالوجود والثقة في الماضي والتطلع إلى المستقبل ، أليست هي أبائنا وأجدادنا الذين تربطنا بهم رابطة الدم والأصل ؟ وأليست هي أبناؤنا وأحفادنا الذين سوف يحملون اسمنا من بعدنا ويواصلون مسيرة الوجود عقب انقطاع حياتنا؟ وإن لم تكن هذه الرابطة التي تخلق قنطرة بين الماضي والحاضر والمستقبل ، هي سندنا في الحياة فماذا تبقى لنا في الوجود نتمسك به ونستمد منه القوة والشجاعة والهيبة ، وبصفة خاصة القناعة بوظيفتنا في الوجود الإنساني؟ .

نعم ، اليوم وأنا أواجه ما واجهه من قبل «سولومون» المفكر الألماني الأشهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وهو يرى أمته العظيمة دولة العبقريّة الجرمانية تداس

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية ، فرنسا العدد 90 ، في 28 كانون ثان - فبراير 1985 .

(1) هويتنا الإسلامية ، ندوة إعداد وائل عبد الغنى ، شارك فيها . أ. د مصطفى حلمي ، د. محمد ابن إسماعيل المقدم ، د. جمال عبد الهادي ، البيان العدد ١٢٨ السنة الثالثة عشرة ، ربيع آخر 1419 / أغسطس 1998 ، ص 54 ، والعدد 129 جمادى الأولى ، والعدد 130 جمادى الآخرة .

بالأقدام تحت سنابك رعاة البقر ، فلا يتردد ويصرح بقولته المشهورة: «سوف أظل بروسيا» .
أجد نفسي أعبر عن نفس موقف الفيلسوف الأشهر ، ولكن فى مزيج من العنف والضراوة من جانب ، والثقة العالية من جانب آخر ، فلا أتردد فى أن أرفع صوتى وفى وجه حكام وطنى وطبقات المثقفين والمزايدىن ، عن قناعة وإيمان ، دون وجل أو تردد : لن أكون سوى عربياً .

نعم يا ملكى ، الملك الحسن الثانى ملك المغرب .

لم أعرفك ، ولم يكن لى شرف لقائك ، ولم يقدر لى حتى أن أزور دولتك ؛ رغم أننى لم أترك شبراً فى الأرض العربية دون أن أجوسه ، وأتفقد جماله وأتغنى بانتمائى إليه . وقد أبت الظروف والأقدار إلا أن تحرمنى من معايشة منطقة أعرف أنها من أجمل بقاع الأرض ، وهى أرض المغرب . قرأت الكثير عن أرضك وأرض آبائك . وأعرف أنها تفوق فى روعتها أرض لبنان الجميلة ، وأنها تكاد تذكرنا بسويسرة فى جمالها ، وتعدد نماذج مناخها ، ولعل هذا هو سر العدد الضخم من السياح الأجانب الذين يجوبون أرجاءها كل عام ، وقد قدرتهم الإحصاءات المتداولة منذ عامين بقرابة مليونين سنوياً ، وهو رقم ضخم فى عالمنا العربى الذى لا يزال لا يعرف معنى صناعة السياحة ، وأعرف تاريخ بلادك العظيمة وقصة الرجولة التى تنضح فى جميع صفحات تاريخ تلك الأمة ، ولكن معذرة سيدي الملك المعظم ، فأنا أعرف أيضاً أنك أضحييت تمثل ظاهرة فى حياة أمتنا العربية وفى مفاهيم قوميتنا وعروبتنا السياسية .

ولكن فلتتابع حديثنا على مهل كلمة كلمة :

أ - المغرب أحد مصادر القوة فى وطننا العربى الكبير ، قوة المغرب ليس فقط مردها الحديث الأجوف المتشنج الذى يبرز على لسان زعمائنا من آن لآخر ، فى لغة المزايدات المألوفة ، ولكن مرده حقائق مادية ملموسة . أول مصادر القوة هو رجال المغرب ، فى تلك الأرض يوجد الشجعان الصناديد ، وإذا كانت ألمانيا تملك بروسيا واحدة ، فإن الوطن العربى يملك منطقتين كلاً منهما من حقها أن تزعم بأنها بروسيا العرب . وكلاً منهما تحرس إحدى بوابات الأرض العربية ، العراق فى أقصى الشرق والمغرب فى أقصى الغرب . رجال صنناديد عرفوا طيلة تاريخهم الصلابة والقوة والشجاعة ، جند لا يهابون الموت . آه لو أضيفت إليهم القيادة الذكية القادرة من وادى النيل ، لاستطاعت الأمة العربية أن تملك جيشها القادر على أن يفرض على العالم الهيبية والاحترام . وماذا تستطيع أن تفعل إزاء مثل ذلك الجيش العصابات اليهودية وأعوانهم فى فلسطين .

فلنستمع إلى بعض صفحات القدرة القتالية المغربية الخالدة كما ترويهما أقلام أعدائنا :

طارق بن زياد⁽¹⁾ ، فتح أسبانيا بقواته المنضوية تحت لواء الإسلام ، ليسطر صفحة من أنقى فصول التاريخ الإسلامى فى عام 1154م - 92 هـ، أعلن عبد المؤمن نفسه خليفة على المغرب العربى، الذى تكون من مجمل شمال إفريقيا الممتدة من مراكش إلى برقة، والذى يشبهه المؤرخون الأوربيون «بشارلمان» ، ثم جاء أشهر سلاطين المغرب «مولاي إسماعيل» الذى استمر حكمه حتى عام 1727 ليسجل لنا نموذجاً شرقياً لأعظم حكام فرنسا التقليدية لويس الرابع عشر. مؤرخو العالم الغربى يشبهونه بحاكم فرنسا؛ لأنه استطاع أولاً أن يوقف جميع الأطماع من حوله سواء الاحتلال الأوروبى أو محاولات التغلغل العثمانى، كذلك استطاع أن يسكت القبائل الثائرة وهكذا خلق الدولة القوية المتماسكة ، نموذجاً آخر يقدمه لنا مولاي عبد الرحمن وبدلالة مختلفة ، إنه لم يتردد ، وهو سليل الملوك فى أن يقف إلى جوار الثائر عبد القادر الجزائرى ضد الاحتلال الفرنسى ، هذا النموذج الذى لم تعرفه أى ملكية أخرى تقليدية فى الوطن العربى ، التى تعودت أن تتحالف بشكل أو بآخر مع المستعمر الأجنبى، هذه النماذج من البطولة والرجولة لم تقتصر على أن تكون فردية، تطبيقاتها الجماعية أيضاً عديدة، آخرها فى العشرينات عندما استطاعت القوات المغربية أن تذل الجيش الأسبانى وأن تذيب القوات الفرنسية الهوان فى عام (1921 م). ولم تظهر انتفاضة الريف مع عبد الكريم الذى أعلن تكوين جمهورية الريف إلا عندما تتابعت الضربات ، وتم التحالف بين أسبانيا وفرنسا، وقد خرجت بريطانيا من معركة شمال إفريقيا بعد أن استأثرت بمصر ، ومن ثم اضطر البطل إلى الاستسلام فى خريف عام 1926 .

هذه قصص ترويه أحداث التاريخ .

كذلك أرضكم يا سيدي معدة لأن تصير أحد مواقع الانفجار السكانى فى نهاية القرن فى الوطن العربى، البعض يقدر عدد سكان المغرب فى مدى خمسة وعشرين عاماً بأكثر من خمسين مليوناً. أرضكم غنية فهى صالحة للزراعة ، وبها من المراعى ما يعدها لأن تصير أحد مصادر الثروة الحيوانية فى الوطن العربى، لو صح أن أرضكم تحتوى على مليارين من الأطنان من الفوسفات ، والبعض يقدرها بخمسة مليارات، فإن هذا يعنى أن بلادكم قادرة على التحكم فى السوق الدولى للفوسفات ، بلادكم ذات موقع استراتيجى متميز، إنها تتحكم فى مدخل البحر المتوسط ، وهى تملك شواطئها على كلا البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، بل إنها الدولة العربية الوحيدة التى تتميز بهذا الوضع الفريد لتذكرنا ولو فى حدود معينة بالوضع الاستراتيجى لأسبانيا فى الجانب الأوروبى ، على أن المغرب تتميز عن أسبانيا فى أنها وهى تمثل تنوعاً فى الحائط الغربى الإفريقى ، أقرب إلى الأرض الأمريكية

(1) وذلك فى رمضان سنة 92 هـ .

من مثلتها الأوروبية أسبانيا.

ولا نستطيع يا سيدي أن ننسى أن دولتك ورغم نُظُمها العصرية ، وأخذها ببعض التقاليد الديموقراطية الغربية ، فهي تعيش حتى هذه اللحظة في استمرارية تاريخية تعيد للذاكرة تقاليد الدولة الإسلامية العربية، إن قصة أصولك العلوية ، وتاريخ مفهوم الخلافة والسيادة الدينية ، لا تزال تسيطر على كثير من عناصر الإدراك السياسي في دولتك ، وفي عالم أضحى يبتعد تدريجياً عن عناصر الانتماء التاريخي المرتبطة بذلك التراث السياسي الذي يكاد اليوم يكون قاصراً على بعض دول الخليج العربي ورغم أن الجميع يتوقع إحياءً لذلك التراث ، وعودة إلى الكثير من تقاليده في الأعوام القادمة .

جميع هذه العناصر تجعل من بلادكم أحد عناصر القوة والمقدرة في الوطن العربي لو أحسن استغلالها، ومع ذلك سيدي الملك دعني أطرح بصراحة وتواضع هذا السؤال : هل أنتم واعون بحقيقة انتمائكم العربي ؟ .

ولكن لتتابع التساؤلات من منطلقاتها الأولية :

ب- دعني سيدي الملك أطرح عليك خمسة أسئلة : كل منها يكمل بعضها، وكل منها يثير من علامات الاستفهام الشيء الكثير، وكل منها يدفع أي ضمير يشعر بانتمائه العربي وبما يعنيه ذلك الانتماء إلى تمزقات لا حصر لها.

أولاً: في لحظة معينة وعلى وجه التحديد ، في عام 1975 خَرَجَت علينا بحديث عجيب طَبَّلَت له جميع أبواق الإعلام الغربي والعربي في آن واحد، وبصفة خاصة في دول المشرق العربي التي كانت قد بدأت تسرب بطريقة مخططة أحاديث معينة حول خلق قنوات الاتصال المباشر مع القيادات الصهيونية⁽¹⁾ ، وقد لعب في هذا دور خطير مركز الدراسات الاستراتيجية بجريدة الأهرام بقيادة د. بطرس غالي ، ورغم أننا كنا قد لفتنا النظر إلى ذلك ، وقبل ذلك التاريخ بعدة أعوام، بل وأثناء حياة الرئيس القائد جمال عبد الناصر . مدار الحديث الذي تبرعت به سيدي الملك أنه قد آن الأوان للتفكير جدياً بشأن التعاون بين النبوغ اليهودي ورأس المال العربي. وقد ناقشنا مقولتك في حينه حيث إن النبوغ اليهودي نبوغ فردي وليس بالنبوغ الجماعي. وإن رأس المال الحقيقي اليوم في يد الصهيونية العالمية . وما هو في يد العرب لو قورن برأس المال اليهودي لبدا قطرة في بحر، والواقع أن هذه المقولة جاءت في لحظة معينة لتكمل تخطيطاً «إسرائيلياً» دعائياً يقوم على ثلاثة أسس:

(1) « أبقى السيف الحكم ، مذكرات موسى دايان » مترجم عن العبرية ، القاهرة 1995 .

- 1- التفرقة بين الصهيوني واليهودي⁽¹⁾ .
- 2- التفرقة بين القوى الصهيونية المتطرفة والقوى الصهيونية المعتدلة .
- 3- التفرقة بين «الدولة الإسرائيلية» في مفاهيم آبائها الأوائل وتلك الدولة في مفاهيمها المعاصرة وبصفة خاصة مع كتلة ليكود⁽²⁾ .

فاليهودى يمكن التفاهم معه ، وهو ليس معادياً للعرب ، والقوى الصهيونية المعتدلة يمكن التعامل معها ، بل ويجب فتح باب الحوار المباشر معها . و«الدولة الإسرائيلية» . فى مفاهيم ليكود ، هى دولة شرق أوسطية . فى هذا الإطار الفكرى الجديد تصير اتفاقيات «كامب ديفيد» أمراً طبيعياً بل وتطوراً منطقياً . حديثكم المذكور جاء مقدمة لفتح الباب واسعاً لمثل هذا التعامل الفكرى .

والسؤال الذى أسمح لى نفسى بأن أطلقه : هل هذا الحديث الذى صدر عنكم جاء بلا وعى أم أنه جاء بناء على تخطيط معين ، وقد تم نتيجة لإعدادكم لأداء دور معين فى المنطقة وتطوراتها السياسية؟ .

ثانياً: وفى خلال ذلك كانت لقاءاتكم مع الرئيس السادات ولقاءات أعوانكم ورجالكم مع أعوان السادات . وفى كثير من الأحيان بحضور قادة «إسرائيل»⁽³⁾ . أنت سيدي الملك تعلم جيداً أنك عراب(*) «كامب ديفيد» . ولن أناقشك فى ذلك لو كان عن قناعة ولكن ما أسمح لى نفسى بأن أطرحه كتساؤل: إن كان الأمر عن قناعة ، فلماذا عقب ذلك تركت الرئيس السادات وحيداً يواجه العاصفة ، أنت دبلوماسى محنك ، فهل لم تكن تُقدّر نتائج زيارة الرئيس السادات للقدس ، وما أعقب ذلك من أحداث؟ وعلى كل ألم يكن من

(1) هذه الألفاظ جميعها (الصهيونى واليهودى ، والصهيونية المتطرفة ، الصهيونية المعتدلة) يمكن مراجعتها بشئ من التفصيل لمعانيها من كتاب « إسرائيل بين اليهودية والصهيونية » رويح جارودى ترجمة : حسين حيدر ، دار التضامن للنشر والتوزيع - بيروت طبعة أولى عام 1990 ص 11 إلى ص 36 .

(2) كتلة ليكود : (هى أحزاب اليمين) فى إسرائيل ، وتدلى كلمة « ليكود » على « فكرة أرض إسرائيل » بحدودها التوراتية ، بما فى ذلك « ضفتى نهر الأردن » ، وقد ظهرت هذه الكتلة قبيل انتخابات الكنيست الثامنة ، فى شهر سبتمبر 1973 ، باسم « الكتلة اليمينية الإسرائيلية » ، بيد أن كتلة « ليكود » وصلت إلى الحكم فى انتخابات عام 1977 بحصولها على (43 مقعداً) بعد أن كانت قد حصلت على (39 مقعداً) فقط عام 1973 ، وتتكون كتلة ليكود من ثلاثة أحزاب هى : « حركة الحرية » والشريك الثانى - الحزب الحر - والشريك الثالث « القائمة الرسمية » . « النظام السياسى فى إسرائيل » لواء . أ.ح.د. فوزى محمد طایل ، دار الوفاء ، الطبعة 2 عام 1992 ، ص 118 .

(3) « أبقى السيف الحكم » ، مذكرات موسى دايان « مترجم عن العبرية ، القاهرة 1995 .

(*) هكذا فى النص الأصيلى .

واجبك أن تقف إلى جواره تحميه أولاً من الزعماء العرب ، وثانياً من نفسه في اندفاعه في طريق مسدود ، لن يقوده في النهاية إلا إلى الهاوية ؟ أم أنك كنت تشارك في الإعداد لتلك الهاوية وهو جزء أيضاً من ذلك الدور الذي أعد لك سيدي الملك ؟ .

ثالثاً: وعقب ذلك وفي قمة أحداث لبنان كيف استطاع ضميرك أن يفتح باب الندوة الدولية المشهورة عن المجتمع اليهودي في المغرب ، والتي انقلبت لتصير لقاءً أو تجمعاً ؟ لمناقشة التواجد الصهيوني في المجتمع المعاصر ، خمس وثلاثون شخصية صهيونية تمثل «الأحزاب الإسرائيلية» والقوى السياسية في «الكنيست الإسرائيلي» فتحت أمامهم أبواب مدينة الرباط يجولون فيها ويصلون بكل حرية ودون أى قيد حتى في تصريحاتهم وذلك دون الحديث عن الاستقبال الرسمي من الحكومة المغربية الذي تميز بالحرارة وعدم الشعور بأى حرج من جانب سلطاتكم . وكانت قمة المأساة أن حضر المؤتمر سبعة من المسؤولين الرسميين الذين يمثلون حكومتكم ، وعلى رأسهم وزير الداخلية السيد البصرى ، ثم وزير الدولة السيد أحمد العلوى ، المقرب منكم سيدي الملك شخصياً . وبينما كانت ذكرى المذابح في أرض لبنان الجريحة لا تزال ماثلة في الأذهان ، كنت أنت تتلقى الدعوة لزيارة إسرائيل . ألا تشعر معى بأن هذا يعنى تحدياً للمشاعر العربية ، وإذلاً للانتماء العربى ، وإعلاناً عن إفلاس القومية العربية ؟ وكيف يسمح لكم ضميركم أن تظلوا على رأس لجنة القدس سيدي الملك ؟ أم أنه مرة أخرى جزء من الدور الذى عهد إليكم بأن تؤدونه⁽¹⁾ ؟ وقد حان الوقت لإخراج فصل آخر من التمثيلية ؟ .

رابعاً: وقد جاءت عقب ذلك البرقيات الصحفية تحدثنا عن طلبك الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة، هل هذا هو الثمن الذى سوف تقبضه مقابل تفتيت التضامن العربى ؟ أم أنه عدم قناعتك بالمستقبل العربى ؟ وكيف توفق بين طلبك الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة عضواً كاملاً واتفاقية الوحدة مع ليبيا ؟ صحيح ، إن هذه الوحدة تدعو ل طرح العديد من التساؤلات ، أولاً التسمية ذاتها : الوحدة العربية الإفريقية . ما معنى ذلك ؟ هل هى أسلوب لإذابة القومية العربية ؟ نحن نعلم كيف أن أحد أساليب النيل من أيديولوجيات القومية تفتيتها باستيعابها فى مفهوم أكثر اتساعاً . وحيث إن هذا الربط لا يمكن أن يدور حول المفهوم القومى ، فإنه لا بد وأن يتقلص ليدور حول مفهوم التعاون ، ومن ثم فهو إضعاف حقيقى لمفهوم العروبة السياسية . فهل هذا هو الذى تريده ؟ أم أنك تريد أن تحيل من وحدة شمال إفريقيا تنظيمياً مستقلاً وكياناً متميزاً يجب أن يسير بابتعاد عن

(1) « أبيقى السيف الحكم ، مذكرات موسى دايان » مترجم من العبرية ، الطبعة الثانية يناير 1990 ، من

وحدة المشرق العربي؟ أليس هذا هو التخطيط الصهيوني والذي يستتر خلف الربط الدائم المستمر بين دول المغرب العربي الثلاثة ، ودول السوق المشتركة ، لخلق الفرقة بين أجزاء الوطن العربي ؟ ألا تعلم يا سيدي الملك أن حول هذا الهدف بالذات تتفق أهداف السياسة الفرنسية والدبلوماسية الصهيونية؟ .

خامساً: على أن أخطر سؤال أسمح لنفسي بأن أتوجه إليك هو عن سلوكك مع رجال المعارضة الليبية عقب الاتفاق المعروف مع العقيد القذافي ، هناك رجال وثقوا في كلمتك وعاشوا على أرض المغرب باسم حرية الضمير وحرية الرفض ، وحق المواطن في التقسيم ، وهي جميعها حقوق أعلنتها ثورتنا الإسلامية وقدستها تقاليدنا العربية . وأنت تعلم جيداً أن هذه في جوهر نظام القيم الذي وضعت أصوله تعاليم القرآن . إنك تحدثنا -سيدي الملك- في كتابك باسم «التحدي» عن أصولك التي تفخر بها وهي أصول تعودت احترام الكلمة . وتذكرنا (ص 42) بكيف وعد والدك بأن يقف إلى جوار القضية المشتركة مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه الخصوص مع فرنسا في مواجهة ألمانيا، وبر بوعده ، واحترم كلمته ، وساند القضية حتى إنه كان موضع الإعجاب والإكبار من جميع المسؤولين في فرنسا، وهذه كلماتك يا سيدي أنقلها حرفياً: «وقد بر والدي بوعده . . وطلب من وزرائه أن يحملوا الشعب المغربي على أن يكون وفياً لفرنسا ومخلصاً لها . . وكان كل هذا الذي مثل من وجهة نظره قضية شرف لا أقل ولا أكثر . .» نعم سيدي الملك : إنها تقاليد الرجال الشرفاء أوفوا الوعود ، واحترموا الكلمة المعطاة . فماذا حدث؟ وماذا أصاب هذه المبادئ في إدراك سيدي الملك العظيم ؟ كيف سمح لك ضميرك عقب ذلك وعقب أن أضحيت حليفاً للعقيد القذافي أن تسلمه خصومه السياسيين أولئك الذين تصوروا أن كلمتك جديرة بالثقة؟ وأنت تعلم أن مصيرهم يوم تسلمهم للعقيد لا يعني سوى شيئاً واحداً وهو الموت في أسوأ صورة وأشنع نموذج، يعيد إلى الذاكرة التوحش الهمجي للإنسان البدائي؟ .

تري أليس من حقى ومن حق أى مفكر يثن باسم الضمير العربي أن يتساءل: ما هو حقيقة الدور الذى تلعبه على مسرح السياسة العربية سيدي الملك ؟ وما هي القوى الخفية التى تحدد هذا الدور وتحركك تبعاً لكل موقف ؟ تذكر سيدي الملك أن أحد أهداف الاستعمار التقليدية هو تلوين مقدساتنا ورموز نضالنا القومي، ولست أنت أول من خضع لهذه العملية . ولنتذكر على سبيل المثال حزب الوفد وقصة 4 فبراير عام 1942 التى جعلت جيلاً كاملاً يحكم على أعظم الأحزاب السياسية قاطبة فى تاريخنا العربى بأنه لم يعد يصلح ليقود الحركة الوطنية . وأنت يا سيدي قد سقطت فى الفخ . فهل تسمح لى بأن

أدعوك لأن تعيد النظر فى هذه المواقف ، التى لن تكون لها من نتيجة سوى خلق هوة سحيقة بينك وبين شعبك؟ وتذكر سيدى أننا نعيش عصراً لم يعد فيه موضع للملوك ، وإن وجد لهم ذلك الموضع فبشرط أن يعكسوا بصدق وأمانة نبض شعوبهم وأن يستمدوا من إرادة تلك الشعوب شرعية البقاء .

فهل من مستمع؟.

